السيرة جمعة رقم (4)

[الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِمِنَ فَتْحِ الرَسُولِ ﷺمَكَّةَ إِلَى حَجَّةِ الْوَدَاعِ]

اَلْخُطْبَةُ الْأَولَى:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ وَاسِعِ الْفَضْلِ وَالْإِنْعَامِ، أَكْرَمَنَا بِأَنْ جَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ خَيْرِ الْأَنَامِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْمُلْكِ عَلَى الدَّوَامِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الذِي كَانَتْ حَيَاتُهُ كُلُّهَا قُدْوَةً لِأُمَّتِهِ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْكِرَامَ، وَمِنِ اِقْتَفَى أَثَرَهُمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ مَا تَعَاقَبَتِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ.

أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

سَنُوَاصِلُ حَدِيثَنَا وَإِيَّاكُمْ – بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى – فِي مَوْضُوعِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَخُلَاصَةُ مَا ذَكَرْنَا فِي الْجُمُعَةِ الْمَاضِيَةِ أَنَّ حَيَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْفَتْحِ، كَانَتْ تَأْسِيسًا لِلدَّوْلَةِ، ثُمَّ اسْتِعْدَادًا لِرَدِ المُعْتَدِين، ثُمَّ فَتْحًا لِمَكَّةَ، أَمَّا الْيَوْمَ فَسَيَكُونُ عُنْوَانُ خُطْبَتِنَا هُوَ: حَيَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْفَتْحِ إِلَى حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَسَيَنْتَظِمُ كَلَامُنَا حَوْلَ هَذَا الْعُنْوَانِ فِي ثَلَاثَةِ عَنَاصِرَ:

الْعُنْصُرُ الْأَوَّلُ: مَرْحَلَةُ تُحَقُّقِ النُّبُوَّةِ، فَبَعْدَ أَنْ أَكْرَمَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِفَتْحِ مَكَّةَ، وَدُخُولِ أَهْلِهَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، عَرَفَتِ الْعَرَبُ جَمِيعاً أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الدِّينُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَزَالَتْ عَنْهُمُ الشُّبُهَاتُ، فَدَخَلُواْ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَتَوَافَدَتِ الْكَثِيرُ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي الْعَامِ التَّاسِعِ مِنَ الْهِجْرَةِ، مُعْلِنَةً دُخُولَهَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَسُمِّيَ هَذَا الْعَامُ عِنْدَ عُلَمَاءِ السِّيرَةِ بِـ(عَامِ الْوُفُودِ)، حَتَّى إِنَّ الْجَيْشَ الْإِسْلَامِيَّ الَّذِي كَانَ قِوَامُهُ عَشَرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، قَفَزَ فِي أَقَلَّ مِنْ عَامٍ إِلَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، ثُمَّ نَرَى فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بَحْرًا مِنْ رِجَالِ الْإِسْلَامِ وَنِسَائِهِ، يَمُوجُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالتَّلْبِيَةِ وَالتَّكْبِيرِ، وَقَدْ بَلَغَ عَدَدُهُمْ مِائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ هَذَا دَلِيلًا قَوِيًّا عَلَى صِدْقِ نُبُوَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، لِأَنَّهُ بَشَّرَ أَصْحَابَهُ بِهَذَا النَّصْرِ الْعَظِيمِ، فِي الْوَقْتِ الذِي كَانَتْ تَعِيشُ الدَّعْوَةُ أَصْعَبَ مَرَاحِلِهَا، مِمَّا يَجْعَلُ تَصْدِيقَ هَذِهِ الْبِشَارَةِ أَمْرًا شَدِيدَ الصُّعُوبَةِ، لَوْلَا قُوَّةُ إِيمَانِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ، وَثِقَتُهُمْ فِي صِدْقِ نُبُوَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: وَاللَّهِ لَيُتِمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ عَنْ تَمِيمٍ اِلدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ،

وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ.

الْعُنْصُرُ الثَّانِي: مَرْحَلَةُ نَشْرِ الدُّعَاةِ وَالْمُعَلِّمِينَ، فَبَعْدَ اتِّسَاعِ رُقْعَةِ الْإِسْلَامِ، أَصْبَحَ النَّاسُ فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى مَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْأَحْكَامَ، فَبَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبْعَثُ سُفَرَاءَهُ لِتَعْلِيمِ النَّاسِ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَتَبَّعَ وَصَايَاهُ ﷺ لِهَؤُلَاءِ الدُّعَاةِ وَالْمُعَلِّمِينَ، سَيُلَاحَظُ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُهُمْ بِالتَّيْسِيرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْعَمَلِ عَلَى تَحْبِيبِ الدِّينِ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، رَوَى ابْنُ حِبَّانَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ لَهُمَا: بَشِّرَا وَيَسِّرَا، وَعَلِّمَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا. وَرَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُواْ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُواْ لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُواْ لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُواْ لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ.

نَفَعَنِي اللَّـهُ وَإِيَّاكُمْ بِكِتَابِهِ الْـمُبِينِ، وَبِسُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُصْطَفَى الْكَرِيمِ، وَأَجَارَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْمُهِينِ، وَجَعَلَنِـي وَإِيَّاكُمْ مِنَ الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ آمِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْـحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اَلْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، صَلَّى اللَّـهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ: مَرْحَلَةُ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَبَعْدَمَا تَمَّ بِنَاءُ مُجْتَمَعٍ جَدِيدٍ عَلَى أَسَاسِ التَّوْحِيدِ، وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثِمَارَ دَعْوَتِهِ الَّتِي عَانَى فِي سَبِيلِهَا أَلْوَاناً مِنَ الْمَتَاعِبِ، أَعْلَنَ ﷺ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ لِلْهِجْرَةِ أَنَّهُ يُرِيدُ الْحَجَّ، فَقَدِمَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَشَرٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِي يَوْمِ عَرَفَةَ اِجْتَمَعَ حَوْلَهُ ﷺ مِائَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا مِنَ النَّاسِ، فَأَلْقَى فِيهِمْ خُطْبَتَهُ الْجَامِعَةَ الْمَشْهُورَةَ، وَمِمَّا قَالَ فِيهَا ﷺ: أَيُّهَا النَّاسُ: اِسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا، أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْاْ رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا وَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، وَقَدْ

بَلَّغْتُ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا، وَإِنَّ كُلَّ رِبًا مَوْضُوعٌ... وَمِمَّا قَالَ فِيهَا ﷺ أَيْضًا: أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى... إِلَى أَنْ قَالَ ﷺ فِي خِتَامِ خُطْبَتِهِ: وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُواْ: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: اَللَّهُمَّ اشْهَدْ، اَللَّهُمَّ اشْهَدْ، اَللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. وَبَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْخُطْبَةِ نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِينًا. وَلِلْحَدِيثِ بَقِيَّةٌ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

عِبَادَ اللهِ؛ اتقوا الله وَجَدِّدُوا الْعَهْدَ وَالْعَزْمَ عَلَى السَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِ وَهَدْيِهِ، وَحَاسِبُوا النَّفْسَ عَلَى مَدَى الْتِزَامِهَا بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

أَلَا فَصَلُّواْ وَسَلِّمُواْ – عِبَادَ اللهِ كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ – عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْأَمِينِ وَالسِّرَاجِ الْـمُنِيرِ؛ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا تَامَّيْنِ دَائِمَيْنِ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ الْـمُتَّبِعِينَ لِسُنَّتِهِ وَهَدْيِهِ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، خُصُوصًا مِنْهُمُ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَانْصُرِ اللَّهُمَّ مَنْ وَلَّيْتَهُ أَمْرَ عِبَادِكَ الْـمُؤْمِنِينَ؛ وَلِيَّ أَمْرِنَا خَادِمَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، نَصْرًا عَزِيزًا تُعِزُّ بِهِ الدِّينَ، وَتَرْفَعُ بِهِ رَايَةَ الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، مَحْفُوظًا بِحِفْظِ كِتَابِكَ، مَكْلُوءاً بِعَيْنِكَ الَّتِي لَا تَنَامُ، وَفِي جَنْبِكَ الَّذِي لَا يُضَامُ، مَوْفُورَ الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، قَرِيرَ الْعَيْنِ بِوَلِيِّ عَهْدِهِ. اَللَّهُمَّ ارْحَمْنَا وَارْحَمْ وَالِدِينَا، وَارْحَمْ مَنْ سَبَقَنَا بِالْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ، عَلَى سَنَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ، اَللَّهُمَّ أَحْيِنَا عَلَى سُنَّتِهِ وَأَمِتْنَا عَلَى مِلَّتِهِ، وَاحْشُرْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَتِهِ، رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْـمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ.